

العلم والشعر في « الكوميديا الالهية »

رتشرد لويج

لقد اظهرت مؤخرا في مقالة نشرت عام ١٩٦٣ في مجلة « دراسات دانتيّة » الصادرة بفلورنسا، كيف ان دانته في « الجحيم » اقصى العلوم الطبيعية عن نطاق المجهودات المسيحية والانسانية المشروعة ، على اساس ان العقل وحده والحواس المادية ، التي يتوجب على العلوم ان تبني عليها بنائها باسره ، هي ضعيفة وميالة للخطأ . بيد انه يتوجب على المرء ان يمضي بحذر في تفسيره لعقل دانته من خلال « الكوميديا الالهية » ، وهي قصيدة كثيرة الكنايات والاستعارات المطولة وكثيرة الاسرار والغوامض ، التي لا يزال بعضها بلا تفسير ولا حل حتى الآن . والامر الذي ينبغي على المحلل البسيط والصادق ان يتجنبه هو التسرع في الحاق دانته بالقائمة الطويلة لاعداء الفلسفة الانسانية . فبصرف النظر عن ردود فعل دانته المضادة لنوع العلوم الطبيعية الذي رآه يتطور في عالمه المعاصر ، فانه يبقى مناصرا لنوع من الفلسفة الانسانية هو اكثر تقدما بكثير من النوع الذي تبناه توما الاقويني (الذي يصححه دانته في « الفردوس ») وقد استمد غذاءه من تربة اغني بكثير . ومع هذا ، فان فلسفة دانته الانسانية ، ان قارناها بالفلسفة الانسانية التي جسات فيما بعد في ايطاليا ، تحتوي على قيود ومحدوديات واضحة فرضها على ذاته ، ومن بينها رفض العلوم التي تنحى منحى طبيعيا .

واودة في الدراسة الحالية ان أتناول هذا السؤال مجددا ، من زاوية نظر اكثر اتساعا من ذي قبل ، بتفحص كل من « الجحيم » و « الفردوس » بغية الوصول الى تقييم صحيح لموقف دانته (المعبر عنه مباشرة او ضمنا) من العلوم الطبيعية ، وبصورة عرضية لموقفه من العلوم العربية ، التي كانت النمط العلمي الدارج بين علماء تلك الايام . وسيتدرج هذا البحث خلال ثلاث مراحل : فساراجع ، اولا ، باقتضاب الارضية الخلفية في « الجحيم » على ضوء شرحي لها في مجلة « دراسات دانتيّة » ؛ وسرف اركز ، ثانيا ، على الدلالة الجديدة التي اعطيتها لقصة نمرود والمردة في قعر الجحيم ؛ وسادرس ، اخيرا ، كيف عرّجت العلوم الطبيعية في « الفردوس » ، الذي يستعاض فيه عن العلم بالشعر في معرفة الحقائق المتصلة بالمصير الانساني .

الحجة ضد العلوم الطبيعية

« الجحيم » هو القسم الأكثر شعبية في « الكوميديا الإلهية » ، و يقدم مثالا على المأزق الاساسي الشامل للانسان ، وهو المأزق الذي سعى دانتة يائسا ، في « الغابة المظلمة » ، الى الخلاص منه . وقد انفرج شعوره باليأس ، لا عن طريق مهارته هو ، بل نتيجة لفيض من التدخلات التي جاءت من العللاء : ذلك ان مريم و بياتريس و لوسي و اخيرا فرجيلس يأتون جميعا لانقاذ دانتة بقواهم الخاصة المختلفة . وفرجيل هو بالطبع الفلسفة الانسانية الوثنية ، لكنه الشعر الازلي بصورة خاصة ، لا العقل بحد ذاته كما ظن الكثيرون . وتمثل مريم النعمة ، التي اعطيت الامتياز الخاص بالحصول عليها من اجل من يقاسون الغم والكرب . و بياتريس هي الحب دون شك ، والفضيلة اللاهوتية « المحبة » ، وهي تسام وتعيد للحب الذي كان قد اختبره دانتة نحوها . اما لوسي فماذا تمثل ، في تدخلها القصير ؟ لقد اعتبرت ، بحق ، بمثابة لفضيلة « الايمان » اللاهوتية ؛ لكن اسمها ، على وجه الدقة ، يعني النور والاستنارة . فلايمان غامض مبهم طالما بقي الانسان مسافرا في محجته الارضية ؛ لكن الايمان يضيئ نورا في الفردوس ، وهو نور من الجوهر الإلهي الذي يجعل جميع الاشياء ظاهرة ومعروفة . على انه يتوجب على دانتة ، قبل ان يستخلص الدلالة الكاملة لجميع هذه التدخلات ، ان يمر عبر الحلقات الجهنمية التي تضم الجيل الضائع كله من البشرية . ولا بد له ، كما يكون مستعدا لرؤية سعادة الانسان المتحققة في الساء لفهمها ، من ان يشهد الاضطرابات التي ينجر اليها الانسان نتيجة استسلامه لبواعث طبيعية خارج نطاق النعمة : كالحب المشوه والكراهية الصريحة ، والشهيات الدنيئة ، وعنف الآثمين ، و اخيرا استخدام العقل بصورة شريرة خبيثة . لقد بذل المعقبون الكثير من الجهد لظهار تدرج الآثام في « جحيم » دانتة : الشهوة ، العنف او الحقد ، الخداع . وقد نظر المعقبون عادة الى اثم الخداع على انه فعل الارادة الشريرة ، وهكذا فانهم لم يفسحوا المجال في الواقع الالبابين رئيسيين من الآثام : نظام الشهية الدنيئة (الشهوة) ، وآثام الارادة (الحقد والخداع) . وقد يكون كل هذا المفضل ، لولا الاغضاء الخطير عن التقسيم الثلاثي الكلاسيكي للظواهر والمجهودات البشرية : الشهوة الحسية ، و الشهية الفكرية التي هي الارادة البشرية ، و اخيرا العقل الذي يخلق

ساجدين يعقّب فرجيل على الكتابة المنقوشة على بوابة الجحيم في الانشودة الثالثة ، يلمح الى كل من المشترك لدى افراد الجيل الضائع : لقد فقدوا جميعا صواب العقل ، وهي الطريقة الخاصة التي عبر بها دانتة عن اخفاقهم كبشر . في القسم الاول من الجحيم ، الممتد من المدخل الى بابنة ديس ، يلتقي دانتة نفوسا جلبت على ذاتها هذا الفقدان نتيجة لانغماسها في شهوات الحسية للحب المنحرف ، ومن بين هذه النفوس ، الساخطون : ذلك ان السخط

في النظرية الارسطوطاليسية هو اضطراب الارواح المادية في نفس الانسان وهي تنهض للسيطرة على دماغه .

ونرى من الناحية الاخرى ان فلاسفة التراث غير المسيحي وعلماء موضوعون في قطاع متوسط الراحة ، هو اليمبوس ، حيث بإمكانهم حتى ان يستمتعوا بمسرات الرفقة الطيبة ، والاحاديث الرفيعة ، والهدوء الذي يمنحه محيط آمن وقور في القصر ذي الجدران السبعة ، التي تمثل الفنون السبعة . ومع ان مصيرهم ليس مفزعا شنيعا كمصير الخطاة من تحتهم ، فثمة قساوة بارعة في حرمانهم الى الابد من « صواب العقل » الذي من اجله عاشوا عيشة صالحة فاضلة .

على المرء ان يتبع دانتة عبر حلقات الجحيم السبع الاولى ، المحجوزة للآثام الخفيفة الناجمة عن الشهية والارادة المضطربتين ، قبل ان يقابل اول دفعة من رجال العلم الذين حلت عليهم اللعنة بسبب استخدامهم الخاطيء للعقل . والفريق الاول هو فريق العرافين ، الذين يلتقيهم دانتة في الدرك الرابع من الحلقة الثامنة (الانشودة ٢٠) . وزعيمة هذا الفريق هي العرافة القديمة مانتو ، لكن كثيرا من التخصص في العرافة « العلمية » قد حصل منذ عهدها . والمعاصرون الثلاثة الذين يذكرهم دانتة هنا كانوا عرافين ذائعي الصيت ، وقد اعتبر اثنان منهم ، وهما مايكل سكوت وغيدو بوناتي ، كرجال علم متضلعين بالتراث العربي ؛ اما الثالث ، وهو اسدينته ، فكان اسكافيا تحول عن حرفته الى التنجيم الشعبي او التبصير في بارما . ويرى دانتة ، في شكل العقاب الذي أنزل بهم في الجحيم - وقد اديرت وجوهم نحو مؤخراتهم ، و « امتنع عليهم النظر الى الامام » (البيت ١٥) - النتيجة الوخيمة للتوغل في الاسباب الطبيعية للكون والاجسام السماوية ، بغية التمكن بالمستقبل . ومايكل سكوت بصورة خاصة كان عالما لدى بلاط فريديريك الثاني في ايطاليا ، وقد اسند اليه فضل جلب الترجمات (عندما كان قبل ذلك في جامعة باريس) التي كانت قد وضعها في طليطلة للمؤلفات العلمية والفلسفية العربية ، ومؤلفات ابن سينا وابن رشد وغيرهما . اما بوناتي فكان مؤلفا غزير الانتاج ، الف كتب عديدة في مواضيع التنجيم ، كانت مستقاة جميعها من مصادر عربية . وبسبب التسميات التي الصقت فيما بعد بهذه الفروع من العلوم القروسطية ، كوصفها بانها « شبه علمية » وتدجيل ، مال المعقبون الى التقليل من شأن العلوم الطبيعية المقتبسة عن العرب ، وهي العلوم التي يدينها دانتة هنا .

وفي مرحلة متقدمة اخرى نزولا في الحلقة الثامنة للذين حلت عليهم اللعنة ، في الدرك الثامن ، يصف دانتة مصير يولسيز ورفقائه (الانشودة ٢٦) . كان اثمهم فضولا الى المعرفة لا يرتوي (الابيات ١١٢ - ١٢٠) :

قال يولسيز : « ايها الاخوان ، الذين وصلتكم
الى الغرب ، خلال مائة الف من المخاطر ،
انكم لن تريدوا ،
في هذه اللحظة القصيرة من يقظة الحواس
المتبقية لنا ، منع اختبارنا
العالم الخالي من البشر ، فيما وراء الشمس .
ارعوا اصلكم ؛ انكم لم تخلقوا
لتعيشوا كالوحوش ،
ولكن لتبتغوا الفضيلة والمعرفة » .

ان التعطش الى معرفة شكل العالم وتكوينه استنادا الى الاختبار البصري الفعلي ، افضى
بيولسيز ورفقائه الى تحطيم الحدود المعينة للعقل الطبيعي والى ملاقات هلاكهم : فقد
تجاسروا على الابحار في المحيط غير المخطط لبلوغ مناطق محرمة . ولماذا كانت محرمة ؟ لقد
وجد منذ اقدم الازمنة فزع حقيقي من التوغل في المحيط الغربي ؛ لكن العالم لم يرق قط في
المحاولة اي شر اخلاقي مباشر : تشهد على ذلك رحلات القديس الايرلندي برنارد في
القرون المظلمة للعصور الوسيطة . ان ذنب يولسيز ، اذاً ، هو فضوله الذي لا يرقوي وتعطشه
الى المعرفة ، وهو الفضول الذي يبين دأته انه يجرّ الانسان الى الافراط والهلاك .

وتشير قصة اخرى من قصص الرحلة عبر الجحيم الى اعتبار دأته ، في رؤياه الجديدة ،
البحث بالطبيعة الذي تنطوي عليه ممارسة الكيمياء الخرافية والفنون العملية ، (او ، بكلمات
الخرى وبلغة اليوم : العلوم الاساسية والتكنولوجيا) ، امرأ غير مشروع . في الدرك العاشر
من الحلقة الثامنة (الانشودة ٢٩) نجد غريفولينو ، وهو فيزيائي و كيميائي من اريزو ،
كان قيد حاول خلق آلة طيران لسيدته البيرو من سيناء ؛ ويحمل دأته الامر على محمل اللهو
المواوح . ومع هذا فان غريفولينو يمتضي في قوله ويصرح بان مينوس ، القاضي الذي لا
يطلق ، ارسله الى تلك الحلقة لممارسته الكيمياء بين الناس (الابيات ١١٨ - ١٢٠) .
الشخص آخر من الذين انصبت عليهم اللعنة يلتقيه دأته هناك ، وهو كابوتشيو « محول
من الكيمياء الخرافية » (١٣٦) و « القرد البالغ البراعة في تقليد الطبيعة » (١٣٩) .
من المثير للمشروع ، كما شرحها فرجيل لدأته في الانشودة الحادية عشرة (الابيات ٩٧ -
١٠٠) ، وعلى الفن ان يحاول جهده في ان « يتبع الطبيعة كما يتبع
الحيوان » (١٠٣ - ١٠٤) ، لا ان يعبت بها ويحول مجراها - كما كان يفعل
العلماء والتقنيون حسب ظن دأته .

القرون الآلية او الكيمياء الخرافية ، التي تهدف الى تغيير وضع الانسان بوصفه
الحيوان بالادنى ، انما كانت شريرة حينما عينت لنفسها هذا الهدف .

ولم يشعر دانتة و فرجيل بأي تأنيب ضمير حين حملتهم عبر الهواء مخلوقات خرافية مثل
غيريون او انتيوس (الانشودة ١٧ والانشودة ٣١) ، لان هذه المخلوقات الخرافية التي
ابتدعتها عبقرية الانسان الشعرية او الصانعة للاساطير ، لا تمت بصلة الى اهداف العلوم .
وهي في عالم « الكوميديا الالهية » تخدم غاية الخالق ، دون ان تزرع قط في ذهن الانسان
اية فكرة حول تغيير وضعه الطبيعي ، كما قد يحاول ان يفعل العرافون والكيميائيون
وغيرهم من العلماء .

ذروة ادانة العلوم في شخص نمرود

من المرجح جدا ان الترتيب الذي نلاحظه في المجموعات المختلفة من رجال العلم في
البحر ، والتدرج من جماعة لخرى ، انما كانا متعمدين ، ليساعدانا على اكتناه رأي دانتة
في المخاطر التي تهدد سعادتنا النهائية ، وهي المخاطر الكامنة في النشاطات المختلفة التي تقوم
بها العلوم للتجسس على اسرار الطبيعة . فالطريق المنحدرة الى اسفل تمر بمراقي النجوم
(العرافين و المنجمين) ، ثم بمراقي الارض (يولسيز) ، وتصل فيما بعد الى الصناعات المهرة
والكيميائيين (غريفولينز الاريزوي و كابوتشيو) . فجميع انصار العلوم الطبيعية هؤلاء
قد تعدوا بطريقة من الطرق على نظام الطبيعة ، الذي هو ابن الله ؛ اي ان « فنه » لم يكن
« حفيد » الله كما توجب عليه ان يكون . وموقف دانتة لا يشكل ادانة قاطعة لا ترد
للعلم ، بل انه ينظر اليها على انها تنطوي على نوايا شريرة ، من شأنها تحويل نشاط
الطبيعية بعيداً عن قصد الله المرسوم والمحدد في النظام الطبيعي للكون . فقد اظهر
دانتة في اليمبوس ان الفلسفة والفيزياء (ابوقراط وابن سينا و غالين و ديوسكوريديس)
لا تملك شخصية شريرة بحد ذاتها ، ومع هذا فانها غير كافيتين لتحقيق سعادة
الانسان النهائية . وقد عمد دانتة في الواقع الى وضع سيفور البرابانت في الفردوس ،
وهو العالم العظيم المؤمن بفلسفة ابن رشد و منافس توما الاقويني ، وذلك لانه ايد العقل
الطبيعي في الفلسفة ، بينما اعترف بمحدودياته (النظرية المعروفة بنظرية الحقيقة المزدوجة ،
اي : الفلسفة تقول هذا الامر ، لكن الرؤيا الالهية كثيرا ما تحكم بالغاء استنتاجاتها -
وهو امر طبيعي تماما ، اذا اعتبرنا ان الله يقصد الاحتفاظ بمصير للانسان خارق للطبيعة) .
ولكن حين تتعدى الفيزياء والفلسفة الطبيعية محدودياتها فعلا ، حين تقرمان اثناء دراستها
للفيزياء الفلكية وللقوانين المسيطرة على الكون بمحاولة بناء علم للنظام الكوني مبني على عقل
الانسان وذكائه ليس الا ، تصبح العلوم الطبيعية عندها فلسفة مادية ، اذ ان الاساس الوحيد
هو الدليل المستمد من الحواس ومن الادراك العقلي . وستكون هذه ، في الواقع ، عودة الى
القوزمولوجيا الوثنية ، وتقهرقاً الى العلوم المصرية و البابلية الوثنية او الى القوزمولوجيا

الآغريقية القديمة. ولا يمكن ان يكون القصد الا شريرا، في نظر دانتة: فهو في «الفردوس» يضع سليمان، الذي يثني عليه لنشدانه الحكمة التي طلبها من الله، مقابل رجال العلم الآغريقيين القدماء الذين بحثوا عن الحكمة الطبيعية بواسطة العلم («الفردوس» ١٣ : ١٢١ - ١٢٦) :

عبثا عبثا يحاول من يتخلى عن الشاطي
ليتصيد الحقيقة، وهو يحل فن الصيادين -
فهو لن يعود الرجل الذي كانه سابقا ؛
انظر كيف ظهر بارمنيدس وبريسون
في نظر العالم، ومليسوس - مدرسة تلو مدرسة -
فقد مضوا في طريقهم، وهو لا يعرفون الى اين هم ذاهبون .

ان ادانة العلوم الطبيعية التي يحدّ البشر في طلبها لاجل ذاتها تبلغ الذروة في «الجحيم»، حين يصل دانتة الى اشخاص المردة، وخاصة نمرود (الانشودة ٣١) . فالمكان المجاور « للبئر » حيث اوقف المردة، بعضهم موثقا بالاغلال، هو مكان اكثر ظلما من بقية الجحيم، ويخيم عليه ضباب كثيف يجعل الادراك البصري مغما و زائفا (الابيات ١٠-١٢) :
كان الوقت هنا اقل من ليل
وادنى من نهار،

وامتد بصري الى الامام قليلا ...

ويخيّل الى دانتة انه رأى ابراجا تنتصب فوق البئر، فيخبره فرجيل ان بصره قد انضاء فهم الاجسام، لان هذه مردة . ثم يشرح فرجيل لدانتة سبب غلطته، وهو تفسير يمكن للمرء ان يقرأ من خلاله قصور الادراك الحسي عن بلوغ الحقائق والوقائع (٢٢ - ٢٦) :

انك تحاول ان ترى اكثر مما ينبغي خلال هذي الظلال
المعتمة ... وهذا يجعلك تخطيء التصور،
وتخطيء في الاستنتاج بعد ان اخطأت في الافتراض ؛
وسترى جليا، عندما تصل الى هناك،
الى اي حد يمكن للبعد ان يخدع العين .

ثم « ترى اكثر مما ينبغي »، « تخطيء التصور »، « تخطيء في الاستنتاج » - هذه العبارات الثلاث تطابق الفكرة التقليدية عن طرق المعرفة الانسانية : الادراك الحسي، والخيال، والعقل . وهكذا يثبت فرجيل لدانتة ان العلوم الانسانية لا يمكن ان تكون غير وضوصة في الظلام، لا تقدر على اداء المهمة، وتقضي الى الخطأ فيما يتعلق بالحقائق الاساسية للكون . وبوصفه الدليل الصالح المعين من علّ ليبين لدانتة حقائق الجيل الضائع («الجحيم» ٢٤ : ٩٤ - ٩٦) :

انا واحد يهبط ، من افريز لافريز ،
لاقود هذا الانسان الحي ...

وجل قصدي ان اظهره على الجحيم

— فانه يستطيع اعانة دانتة على تبديد الافكار الخاطئة التي كونها لنفسه باعتماده على
بصره وحده . ويكون للمعرفة التي يتلقاها دانتة من فرجيل مفعول كتبديد الضباب ،
وبعد هذا فحسب يستطيع دانتة ان يرى خطأه (« الجحيم » ٣١ : ٣٤ - ٣٩) :

وكما يحدث عندما ينقش الضباب ،

فتبتين العين قليلا قليلا

ما يخفيه البخار الذي يكثفه الهواء ،

هكذا بينما كنا نخرق الهواء المظلم الكثيف ،

ونحن نقرب رويدا رويدا من الشاطئ ،

زائلي الخطأ ، وزاد عندي الخوف .

فيصبح الآن بوسع دانتة رؤية الشكل الهائل الشنيع للمردة حول البشر ، وينتابه شعور
بالفرع . هذه هي اللحظة التي يسمع فيها المارد نمرد يطلق تلك الصرخات (البيت ٦٧)
التي كانت تدعى على الدوام تقريبا مجرد لغو وهذر لا معنى لهما—لكنها في الواقع مفردات
عربية يعترف فيها بجريمتها ، وهي جريمة قيامه بلاحقة العلوم الزائفة الكاذبة والنصح بها
والدعوة اليها : "Rafel mai amech zabi almi" (غافل معي عمق ذا بعلم) — اي :
« هذه الهاوية (العمق) ، التي معي ، هي حماقة خالصة ، بسبب العلم » .

وقد توصلت الى هذا التأويل بالاشارة الى كتاب يدعى « كتاب نمرد » يعود عهده الى
القرون الوسيطة ، وهو كتاب يظهر فيه هذا المارد التوراتي وهو يمتدح العلوم الطبيعية التي
تقضي الى تفهم البنيان الجوهرى للكون ، دونما حاجة الى فكرة الخالق . فالقوة الكونية
التي تمسك بالعالم وتمنعه من التفكك تكمن في وسط الارض ، وباستطاعة العلماء ان يفهموا
الكون بامرهم بمجرد استخدامهم للجداول والتقويم . وادعى نمرد ايضا ان العلوم هي الملاذ
الاخير للرجل الحكيم ضد تقلبات الحظ . ويمضي الكتاب قائلان ان معاصري نمرد اعتبروا
حكيمته عظيمة جدا حتى انهم ارادوا اعلانه الها .

وكان دانتة قد اظهر في كتابه « في اللغة الدارجة » كيف ان نمرد خدع ابناء البشرية
بدعوتهم الى المهمة الشريرة ، مهمة تشييد برج في سنار ، يرفعهم الى مكان قريب من
الساوات ويضعهم حتى فوق الخالق . وعلى هذا النحو قام القديس برنارد في « الموعدة
الرابعة حول الصعود » بمقارنة رجال العلم في زمانه بمشيدي برج بابل ، الذين استهدفوا
بمعرفتهم مضاهاة الخالق والتفوق عليه . وثمة اثباتات كثيرة تشهد على انتشار هذه الفكرة
خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر—، وانها لمفاجأة سارة ان نكتشف ، من خلال كلمات
نمرد العربية ، ان دانتة يتبنى من جديد هذا الاتجاه ضد رجال العلم . وباستطاعة المرء ان

يدرك النية المخبأة في استخدام الكلمات العربية على لسان نمروذ بعد ان يعرف ان العلوم العربية كانت في زمن دانتة الزبي الدارج في الفكر الغربي، على الاقل بين المتخصصين بالعلوم. وكان تأثير العرب على الغرب عن طريق العلم في ذلك الزمن، الواسطة الوحيدة للروح العلمية التي استهدفتها دانتة؛ ومن هنا لجوءه الى هذه الوسيلة الغربية واستخدامه للجملة العربية، لادانتها وشجبتها - في شخص نمروذ، المارد القديم الذي نسب اليه « كتاب نمروذ »، الذي كان يحظى بانتشار واسع في القرون الوسيطة.

احلال الشعر والرؤيا مكان العلوم الطبيعية

ان الاستقصاء السالف لموقف دانتة من العلم كان مرتكزا على « الجحيم » وحده، من تسلسل الامثلة على العقابات التي يلقاها رجال العلم هناك. والآن يمكن الحصول على اثبات واف لهذه النظرة، وعلى فهم اكيد لنظرة دانتة النهائية فيما يختص بطرق المعرفة، وذلك باستقصائنا لحالات مختلفة في « الفردوس ».

(أ) في اولى انشودات « الفردوس » اطلاقا (الابيات ٥٥ - ٥٧)، نقرأ، بما لا يحتمل لبسا ولا ابهاما، ان معرفة الحقائق السماوية التي تعتمد عليها سعادة الانسان، متنوعة عن الحواس البشرية في نطاقها المحدود:

هناك يُسمح بالكثير مما هو محرم
هنا على قِوانا؛ في ذلك المكان البديع
الذي عيّن للبشرية ان تملكه، وفيه ان تقيم.

ان المعرفة التي يبدأ دانتة هنا باكتسابها - رويدا في بادىء الامر لان وفرة الضوء اعمت حواسه، الى ان تتخطى حواسه حدودها البشرية («الفردوس» ١ : ٧٠) وتضحى قادرة على استيعاب المزيد والمزيد من الحقائق - هذه المعرفة ليست ذات طابع خارق للطبيعة وحسب، بل هي تشتمل على رؤيا مباشرة للكون المادي في جزئه الفلكي (وهو نطاق علم الفلك وعلم التنجيم التقليدي). ولم يشر المعقبون الا بصورة مقتضبة الى النظريات الفلكية التنجيمية المكثفة التي تتخلل «الفردوس». فدانتة هنا «يرفع الى ما فوق البشري» ما كان العالم في القرون الوسيطة قد تلقنه من العرب. وكان اختباره الاول، برؤية الشمس والعوالم في الانشودة الاولى، قد خدره، واعترف بانه لا يستطيع الفهم في البداية. فتأتي بياتريس، التي تتسلم هنا مهمة التعليم التي كان قد قام بها فرجيل في الجحيم، وتشرح له سبب ما يجده من صعوبة: فدانتة، الذي لم يكن قد نبذ كل عاداته القديمة بعد، ما يزال يعتمد على قوته الذهنية وحدها ليفهم (٨٨ - ٩٠):

انك تبدد ذهنك
بالخيالة الزائفة، ولا تدرك
ذاك الذي ستدركه، ان انت تخلصت منها.

وكما حدث في الجحيم ، يصار مجددا الى اعلان ان الخيلة وحدها في خدمة ملكة التعقل والتفكير لا تكفي . وتمضي بياتريس (من البيت ٩١ حتى نهاية الانشودة) فتقدم لدانته درسا في التفكير والتعقل في الحالة لما فوق البشرية : فهو يجب ان يبدأ من مبدأ ان « مثال الله مطبوع على الكل » (٥ - ٦) . وكل استخدام آخر للعقل « هو ثمرة اطفال » (١٠٢) .

(ب) الانشودة الثانية من « الفردوس » هي تركيز مذهبي من شأنه ان يصفى فورا جميع الحسابات مع العمليات الطبيعية لمعرفة الانسان وادراكه . تبدأ الانشودة بانذار خطير ، موجه بعبارات شعرية رائعة الى العقول الصغيرة التي تركب صدفة زورق صغير ، ولا تتبع النشيد الا لانها « متشوقة الى المعرفة » ، - بالا تحاول الابحار في بحور غير مخططة في اثر الشاعر ، وبالبقاء على الشاطئ ، لئلا تفقد الدليل وتفقد نفسها اثناء سفرتها البحرية المعرضة للاخطار (الايات ١ - ٦) :

انتم يا من تتبعون في اصداغ محار صغيرة
(من اجل النشيد) سفينتي المبحرة في المقدمة
تشق سبيلها وتشد وهي تسير -
عودوا ادراجكم وانشدوا امان الشاطي ؛
لا تمهدوا بانفسكم لليم ، لئلا تفقدوني وتفقدوا
انفسكم على غرة ، ولا تعودوا الى المرفأ قط .

ويظهر التلميح الى القوى المحدودة للعقل والخيلة الانسانيين بصورة شفافة في « اصداغ المحار الخفيفة » ، وفي « من اجل النشيد » (او « التشوق الى المعرفة ») التي تشير الى باعث الفضول في الاغناء الى النشيد الذي يتحدث عن اصقاع جديدة غير مخططة . وللشعراء وحدهم ، تلامذة ابولو و منيرفا وعرائس الشعر التسع ، ان ينتفعوا من اقتباع شراع الشاعر (٧ - ٩) :

تقتحم سفينتي محيطات غير مقتحمة بعد ؛
يدير ابولو الدفة ، وتنتح منيرفا النسيم ،
وعرائس الشعر التسع يوجهني الى الدين .

حين كان دانته في الجحيم اطلع على غباوة نمرود الذي حاول بالعلم ان يفسر القوة المركزية للكون ؛ ومن ثم استولى عليه الفزع عندما خطرت له الفكرة بانه يتوجب عليه هو نفسه القيام بمهمة مماثلة . ولما ادرك بمزيد من الوضوح معنى مهمته الشعرية في رفقة فرجيل ، توسل اذ ذاك الى عرائس الشعر ان يبين له الطريق الصحيحة (« الجحيم » ٣٢ : ١ - ٩) :

لو كانت لي قوافٍ لاذعة خشنة ،

تناسب الهوة البائسة

التي ارتكزت فوقها سائر الصخور ،

لوفيت التعبير عن عصارة فكري ؛

ولكن ما دمت لا املكها

فلن احمل نفسي على القول دون رهبة ؛
لانه ليس مقصدا يؤخذ مأخذ اللهو ،
ان يوصف مركز العالم كله -
ويجب الا يترك للسان طفل هاذر .

ثم طلب اذ ذاك من عرائس الشعر ان يلمهنه ؛ اي طلب شعرا عوضا عن علوم غرود
(١٠ - ١٢) :

ولكن فلتساعد شعري اولئك الربات
اللائي ساعدن امفيون في اغلاق طيبة
حتى لا تحيد ابياقي الهائلة عن جادة الحقيقة .

وفي كل من « الجحيم » و « الفردوس » ، يحل الشعر محل العلوم ؛ وهو وضع كان قد
رمز اليه مقدما بانتقاء فرجيل كدليل له . اما في « الفردوس » ، فان نفوسا صوفية
تدعى ايضا لاتباع الشاعر ، لان تلك النفوس كانت قد امتدت لتتناول خبز الملائكة
(١٠ : ٢ - ١٥) :

ولكن انت ، ايها النفوس النادرة ، التي امتدت لتتناولي
قبل الاوان خبز الملائكة ، غذاء البشر
الذي يعيشون عليه هنا ، ولا يتخمون ،
لك ان تستودعي مركبك الشاطي
وتلحقي بسفينتي ، حيث تنهزم الاخايد والحفر
قبل ان تستوي المياه الهائجة من جديد .

هذا الوصف يطابق اختبار الصوفيين بوصفه مماثلا لاختبار الشاعر (« ان تلحقي
بسفينتي ») ، اذ ان نشوة الصوفيين الروحية لا تترك اثرا لمحتويات الاختبار بعد مرور
اللحظة . اما الشاعر فهو كالنبي ، من حيث انه قد يستطيع - وان يكن بشيء من الصعوبة
بمستبب ضعف الذاكرة -- ان يعطي صورة عن بعض الآثار الواهية لاختباراته في شكل
قصيدة (« الفردوس » ١ : ٤ - ٩) :

كنت ضمن تلك السماء التي تتقبل كما لا تتقبل سواها ضيائه ،
ورأيت اشياء لا يعرفها بشري
ولا يستطيع تذكرها ، حينما يعود من ذلك العلو الشاهق .
ذلك ان عقلنا حين يقترب
من رغباته ، تصير دروبه من العمق
بحيث لا تقدر الذاكرة على اتباعه حينما يذهب .

لذلك فان الشعر والاختبار الصوفي ، وحدهما يستطيعان ادراك الحقائق الازلية ، بما
فيها تلك المتصلة بالكون المادي ، كالعوالم الكوكبية السماوية .
وفي اجزاء لاحقة من الانشودة الثانية نرى ان الحواس ، وهي ابواب العلوم الطبيعية ،

لا تستطيع ان تساعد على حل الغاز الكون الرئيسية ، وان العقل بدوره لا يقوى على التعويض (الابيات ٥٢ - ٥٧) :

ابتمت قليلا ، وقالت : « وان اخطأ حدس
البشر ، حيث لا تقدر الحواس على
حل الاحجية ، حتى وان حاولوا جهدهم ،
فان سهام العجب لن تتراشق عليك انت ،
لانك ، وان تقد الحواس الطريق ، تعي الآن
قما لا تقوى اجنحة العقل على السمو اليها » .

ولاقامة البرهان المادي ، ولوضع حد لكل ادعاءات العلوم ، تقترح بياتريس من ثم ،
بخصوص مشكلة البقع على القمر ، اجراء اختبار بالمرايا - وهي عملية علمية حقة ، لكنها
تهدف الى اظهار خلل التفسيرات العلمية للكون حين تكون مرتكزة على الاختبار . وهكذا
تُدحض العلوم بأسلوبها هي . وفي النهاية ، تقدم بياتريس التفسير الحقيقي للبقع على القمر ،
وهو تفسير من الواضح ان العلم والاختبار لن يتوصلا اليه ابدا ، لانه يرتكز على اشعاع نور
الجوهر الالهي الذي يتخلل الكون بأسره (١ : ١ - ٣) :

مجد الذي يحرك كل الاشياء قاطبة
يتخلل الكون ، ويشتمل البهاء
مضيئا ، اشد هنا ، اخف هناك .

ويبدو ان نتيجة هذا المشهد الصغير فيما يتصل بالعلوم التجريبية هي ان دأته يرفض
فكرة ان العلوم ، المبنية على التجربة والخطأ ، قد تصحح ذاتها مع ذلك عن طريق
الاختبارات المتكررة ؛ بل انه ، على العكس من ذلك ، يلح بوضوح الى انه يمكن اقامة
البرهان على ان العلوم هي مصدر للخطأ فيما يتعلق بالحقيقة النهائية . وتقدم بياتريس الامثلة
حين تصف عقل دأته بعد التجربة بانه قد « عرّي حتى اساسه المجرد » ؛ ولذلك يمكنها
عند هذه النقطة ان تطلعه على التفسير الصحيح للظاهرة الطبيعية ، ظاهرة البقع على القمر
(٢ : ١٠٦ - ١١١) :

الآن ، كما ان الثلج المستسلم للذوبان الدافئ
يتعرى حتى اساسه المجرد ، ويضع عنه
البرودة والبياض اللذين اكتسهما قبلا ،
هكذا عرّي عقلك ؛ والآن
سأملأك بنور حي هو من البهاء
بحيث يتراقص كنجمه متلألئة امام عينيك .

وهكذا فان ازالة البرودة والبياض الطبيعيين عن عقل دأته لن تتم بواسطة الاختبار
المتكرر والمصحح لذاته ، بل بواسطة الرؤيا الالهية والرؤيا الشعرية . وينبغي على دأته ان
يذكر ذلك حين يعود الى الارض ؛ فبدل ان يهدر وقته على العلوم ، عليه ان يدرب نفسه

على استذكار الطريق الصحيحة (١٢٤ - ١٢٦) :

اذكر جيدا الطريق التي اعبرها ، لا عرّف
عقلك الآن على الحقيقة التي يبتغيها ،
وتعلّم من الآن فصاعدا اجتياز هذه المخاضة وحدك .

(ج) كلما تقدمنا مع دانتة في الطريق الى السماوات العليا ، يزداد اطلاقنا ، في مناسبات
مختلفة ، على السبب الاساسي لهذا التقصير الجذري في العلوم الطبيعية . ويمكننا العثور على
اوضح تعبير عن هذا التقصير في الانشودة الثامنة والعشرين (٤٩ - ٥١) :

لكن في العالم ادناه تنعكس الامور ،
فكل كرة تكون اكثر تشبعا بحب الله
كلما بدت ابعد عن النقطة الوسطى .

على هذا فالارض - اذ تقع في وسط الكون بالضبط ، كما اشير الى ذلك بوجود المردة
والشيطان لوسيفر فيها ، لانها ابعد ما تكون عن الله - هي بالتالي اقل تشبعا من غيرها
ولا شك بنور جوهر الله . اما في السماء ، فالامر على العكس من ذلك ، حيث لا توجد
مادة ارضية ، وحيث جوار الجوهر الالهي اشدّ واعظم : « لا يبني التخوم الا الحب
والنور » (٥٤) ، - في حين انه على الارض « تنحرف النسخة عن نموذجها » (٥٦) . ها هنا
اذا السبب الرئيسي الذي يجعل العلوم الطبيعية ، التي تستمد اختبارها من النسخة الخاطئة ،
عاجزة عن الوصول الى الحقيقة الصحيحة ، حتى ولو عمدت الى الاختبارات المتكررة الى
ما لا نهاية . وهكذا فان كلا من « الموضوع » الذي يتحلى بالمعرفة ، اي الانسان بحواسه
الناقصة وعقله غير التام ، « والغرض » الذي تستهدفه المعرفة ، اي الطبيعة النائية جدا
عن النور والحب ، يحيلان وسائل العلوم الطبيعية عاجزة عجزا تاما . وقد اكد توما الاقويني
ايضا على المبدأ عينه في الانشودة الثالثة عشرة (٧٦ - ٧٨) :

الطبيعة تعمّه ، ولا تملك قدرة اكيدة
على ادواتها ، فهي مثل صانع ماهر
يتقن حرفته ، لكنه يملك يدا مرتجفة .

ولكني يعرف الانسان الطبيعة ، التي هي في الواقع انعكاس لجوهر الله ، كما بيّن دانتة
في « الجحيم » ، عليه اولا ان يملك شعورا بالله (« الفردوس » ١٠ : ١ - ٦) :

القدير القديم الذي تفوق عظمته كل وصف ،
اذ ينظر الى ابنه بحب
يبته كل منهما الى الابد ،

جعل كل الاشياء التي تدور في العقل والفضاء تتحرك
في نظام عظيم ، لن يدركه احد
ان لم يملك شعورا بالله .

وهكذا تم ادانة جهود القوزمولوجيين الاغريقين القدامى الذين حاولوا ان يفقهوا الطبيعة باستخدام العقل البشري وحده .

(د) ان المخاطر المحتمة في مهنة المفكرين تكمن ، في نظر دانته ، وراء المشاغل التي انهمك بها المجتمع في القرون الوسيطة . وعلى النقيض من ذلك ، نلاحظ ان المديح يكال الى الملك سليمان لانه لم يطلب الا الحكمة لتحقيق واجبه الملكي المعين له («الفردوس» ١٣ : ٩٧ - ١٠٢) :

لا كيف يحصي محركي الاجسام العالية
(الفلك والتمجيم)
ولا ان يعرف ما اذا كان « العرضي » و « الضروري »
ينتج عنها « الضروري » في البرهان الاخير ،
(المنطق والجدل)
لا ان كان يمكن القول بوجود حركة اولى
(الطبيعة والفيزياء)
ولا اذا كان انقول بان « المثلثات في انصاف دوائر يجب
ان تكون ذات زوايا قائمة » يعرض الحقائق بدقة .
(العلوم الرياضية)
هكذا يمدح توما الاقويني سليمان ، مثال الحكمة التي يمكن ان ينالها الانسان : ومع
هذا ، فانه لم يحقق دعوته العظيمة عن طريق العلم ، كما فعل الملك نمرود ، ولا عن طريق
عقل تشرب العلوم الدنيوية ، بل حققها باختياره الحكمة المتلقاة من الله نفسه ، كما ورد في
سفر « الملوك الاول » من الكتاب المقدس (٣ : ٥ فما بعد) .

في الانشودة الحادية عشرة من « الفردوس » ، يقارن دانته حالته السعيدة الراهنة اثناء
الرؤيا في الفردوس ، بنشاطات الحياة الباطلة في المجتمع الدنيوي الارضي ، وان يمكن
مجتمعا مسيحيا : فكل شيء باطل خلال الاهتمام الرئيسي بالغبطة والسعادة الازلية
(الابيات ١ - ١٢) :

يا لطموح البشر الاخرق !
اي تعليقات قياسية ضالة
(المنطق والجدل)
تشغل جناحيك وتشدهما الى التفاهة الدنيوية !
يلاحقون النجاح القضائي او النجاح الحكمي ،
(القانون والطب)
وترقيات الكنيسة ، والسيطرة
بأي وسيلة ، وحشية كانت او سفسطائية .
واحد منكب على التجارة ، وواحد على السلب و الخداع ،
(الربا)
وأخر يضني ذاته في ملذاته الجسدية ،
وهو فيها اسير ، وواحد متسطح في بطالة كسول -
هناك كانوا جميعا ؛ بينما كنت انا ، في حل مبارك
من كل هذي المشاغل ، الى جانب بياتريس
استمتع بترحيب السماء بي ترحيبا مجيدا فانقا .

تردد هذه الابيات مقطعا مماثلا في « الموعظة الرابعة حول الصعود » التي يهاجم فيها

القديس برنارد الاهتمامات الباطلة لعلماء المنطق والجدل والمحامين وعلماء القانون الكنسي ،
- وهي موازنة ادت بالبعض الى الاشتباه بان تفكير القديس برنارد قد ترك تأثيرا عميقا ،
لم يلق انتباها كافيا حتى الآن ، في مفهوم دانتة للحياة الفكرية في « الكوميديا الالهية » .
بل ان صورة نمرد كمثل رئيسي للكبرياء البشرية المفرطة بسبب المعرفة ، قد يكون
دانتة استعارها من القديس برنارد .

ويجاءر دانتة ، في حضور النفوس التي تشكل « النسر » في الفردوس ، (الانشودة ١٩) ،
بالحيات الفكرية التي اختبرها دوما على الارض (٢٥ - ٢٧) :

والآن ، بما تنفخينه من نسائم ، خففي القحط
الذي طالما عانيته وطالما هديني الجوع
لانني لم اعثر على غذاء له على الارض .

اما الآن وهو في السماء - توجهه بياتريس ويرشده نور الجوهر الالهي الذي هو مصدر
المعرفة الصحيحة - فان دانتة يعقد آمالا بالحصول على قناعة فكرية (٣١ - ٣٣) :
بكم من اللهفة انتظر الحقيقة اخيرا ،
وما الذي لم افهمه ابدا ،
انت تعرفين - وتعرفين كل اسباب قحطي وصيامي .

كان سبب خيبته تقصير العقل البشري عن تفسير العدالة في وضع كافرين صالحين (عالم
العقل الطبيعي) في اليمبوس وابقائهم فيه الى ابد الأبدين ؛ وقد استثناهم الله من الخير النهائي
للانسان . وتجييه الارواح التي وجه اليها دعاءه ، بتفسير مذهبي يمكن اعتباره ملخصا
للمحدوديات المختلفة للعقل البشري ، وبالتالي للعلوم الطبيعية المبنية على هذه الملكة الضعيفة
(٤٩ - ٥٧) :

... الطبائع الادنى ، جميعا ،
هي اوعية ضيقة جدا على ذاك « الخير » الذي يبقى
بلا حدود ، ولا يقاس الا على ذاته .
وبصرنا ، الذي لا بد وان يكون واحداً فحسب بين
شعاعات ذاك العقل العظيم المألء كل المخلوقات حتى الامتلاء ،
لا يقدر ابدا ، اذاً ، بطبيعة الحال ،
على امتلاك مثل هذه القوة العظيمة ، بل ينبغي على
جوهره ان ينفذ الى ما وراءه ، وان يدرك
اكثر بكثير مما هو ظاهر لعينيك .

وتحتّم الارواح المباركة اجابتها بقولها ، بعد قليل (٦٤ - ٦٦) :

ما من نور ، الا من ذاك الهاديء الساكن
الذي لا يضطرب ابدا ؛ وكل ماعده ظلام ،
ظل جسد ، او سمه الاسود .

بعد ان اجرت بياتريس اختبارها بالمرايا واثبتت ضعف العلوم ، كان دانتة قد تهيأ

لفهم الامثلة النهائية حول المصدر الحق والموثوق الوحيد للمعرفة في عقل الانسان
(« الفردوس » ٣ : ١ - ٥) :

الشمس التي ادفأت صدري اولا بالحب
قد اخرجت الى النور وجه الحقيقة البهي ،
وحسرت عنه اللثام بالبرهان والبرهان المضاد .
اما وقد صُححت واقتنعتُ ، فعليّ ان
اعترف في الحال ...

لهذا فان العلم الشرعي الوحيد هو الذي ينبثق عن النور الالهي الموزع والمشاع في جميع
ارجاء الخليقة ، والخطوة الاولى لادراكه يجب ان تكون عن طريق الحب والاتحاد بهذا
النور . ولا يبدو هذا ممكنا الا للشعراء والصوفيين ؛ وعلى جميع الحرف والمشاعغل
والنشاطات البشرية الاخرى ان تستمد جدارتها واستحقاقها من الاعتراف الصادق بنظام
العدالة الالهية هذا والخضوع له . واي موقف غير هذا هو باطل ، بل انه خطير كالاتروبين
والسم الاسود .

ان الدعوى والقضية ضد الاجتهاد البشري الذي ينشد تعلم الحقائق الجوهرية بالاستناد
الى نشاط العقل الانساني بمفرده ، دعوى لا يمكن ارجاء الحكم ووقف التنفيذ فيها . فالعلوم
الطبيعية في وضع ادانة بالنظر لمطامحها المتعجرفة ، كما في حال غرود ؛ وهي باطلة لا قيمة لها حين
ينشدها البشر دون ان يدركوا محدودياتها ، بدليل وجود الفلاسفة والعلماء الصالحين في
اليمبوس . اما الشعر ، من الجهة الاخرى - الذي هو شعاع ارضي منبعث عن النور والحب
الالهيين ، وليس مجرد نظم - فله ان يقترب من الحقيقة على الارض بقدر ما هو ممكن
بالنسبة للبشر الفانين ، وان يضعهم على الطريق الصحيح نحو مصيرهم . وهكذا ايضا تفعل
الصوفية التي تقتات على « خبز الملائكة » ؛ لكن الفارق هو ان الشاعر ، شأنه في ذلك
شأن النبي المصطفى من الله ، مؤتمن على مهمة ، هي تذكير البشر بهذه الحقائق على الدوام .